١٩ ــ إذلال

يظهر(١) أن العقل يتعرض فى هذه الأيام لمحنة منكرة لم يتعرض لمثلها منذ زمن بعيد فى هذا العصر الحديث والسياسة مصدر هذه المحنة . فقد أبت إلا أن تتسلط فتجور فى السلطان ، وتظلم فتسرف فى الظلم ، وتخضع لأهوائها وشهواتها كل شيء حتى هذه الجذوة المقدسة التى جعل الله بها الإنسان إنسانا ، والتى جعل الله بها للناس كرامة تحفظ ، وحرمة تُرعى ، والتى جعل الله بها الإنسان سيدًا لهذه الطبيعة التى تحيط بنا ، وملكا لهذا العالم الصغير الذى نعيش فيه .

وقد عرفت الأمم فى هذا العصر الحديث ضروبا من الظلم ، وألوانا من الطغيان ، ولكنها لم تتعرض من إهانة العقل وازدراء كرامته وإخضاعه لعدوان السياسة وطغيانها ، وتحكيم الجهل فيه بمثل ما تتعرض له فى هذه الأيام فى بعض البلاد .

أما فى ألمانيا فيجتمع الشباب والطلاب مئات من الألوف ، وقد حملوا الكتب وتأبطوا الأسفار حتى إذا ما انتهوا إلى ميدان أو ميادين ؛ جمعوا هذه الكتب والأسفار التى جاهد العقل حتى أنتجها ثم أضرموا فيها النار فحرقوها تحريقا ، وهم فى أثناء ذلك فرحون مبتهجون . وقد عبثت بهم نشوة تشبه نشوة السكر ، وتملأ قلوبهم هياما بهذا اللهب المنكر الذى يحرق العقل وآثاره ونتائجه الخصبة القيِّمة .

يقع ذلك فى برلين ، ويقع ذلك فى غير برلين ، وتقرّه حكومة منظمة تعد نفسها بين الحكومات المتحضرة ، وتريد وتصر على ما تريد أن تكون فى الصف الأول بين الحكومات الكبرى فى هذه الأرض .

نعم وتنفض المجامع العلمية والأدبية والفنية فيقصى عنها رجال كانوا مضدر الفخر والعزة لألمانيا وللإنسانية كلها فى العلم والفن والأدب فإن لم يقصوا عمدا

---

(١) ١٩ ــ ٥ ــ ١٩٣٣ .

سلطت عليهم ظروف قاسية تضطرهم إلى أن يقصوا أنفسهم من هذه المجامع ، ثم إذا خلت منهم أماكنهم فيها ؛ أقيم مكانهم قوم آخرون لم يمتازوا ، ولم تعرف لهم آثار خصبة قيمة ، ولكنهم رسل السياسة وأتباعها وأعوانها يقدمونها على كل شيء ، ويتوسلون إليها بكل شيء ، ويضحُّون فى سبيلها بكل شيء حتى بالعلم والفن والأدب .

نعم وفى أثناء هذا كله تحظر كتب مطبوعة على القرَّاء ، فلا يجوز أن تباع ولا أن تشترى ، وتعلن أسماء طائفة من المؤلفين قد محى حقهم فى التحدث إلى الناس محوا ، فلا ينبغى للألمانيين أن يقرأوهم ولا ينبغى للمكاتب الألمانية أن تبيع كتبهم أو تعرضها للبيع .

نعم ، ولا يتحرج وزير ألماني أن يخطب ويذيع خطبته فى ملايين الألمان ويقول فى هذه الخطبة : « لقد آن الوقت الذى تطهر فيه ألمانيا قاذورات العقل » .

تبارك الله ، لقد آمن الناس منذ قرون وقرون أن جذوة العقل هى التى طهرت الإنسانية من آثام الأهواء والشهوات ، ومن رجس العواطف والغرائز ، فأصبح العقل الآن عند بعض الألمان ينتج القاذورات ، ويجب أن تطهر ألمانيا من آثاره ! فإذا بحثت عن هذه الثورة المنكرة بالعقل فى ألمانيا ، فلن ترى إلا شيئا واحدا ، هو السياسة . سخط على اليهود مصدره السياسة ، سخط على الشيوعية والاشتراكية والديمقراطية مصدره السياسة سخط على العلم والأدب والفن مصدره السياسة .

ويل للناس من السياسة ، لقد طغت عليهم وبغت فيهم حتى اضطرتهم أن يفكروا أنفسهم وتاريخهم ومجدهم القديم .

ومن قبل ذلك أذل العقل فى روسيا ، فشرد العلماء والكتاب ، وأذيقوا ألوان الذل والعذاب ، ولم تزل بهم سياسة البلاشفة حتى أخضعتهم لسلطانها ، واضطرتهم إلى أن يكونوا لها أعوانا وأبواقا ، وإذا لم تصل حال العلماء والمؤلفين فى إيطاليا إلى ما وصلت إليه فى روسيا أو فى ألمانيا ، فإن حال هؤلاء الناس ليست من الحسن والرقىّ ، ولا من الأمن والدعة بحيث يغبطون عليها أو يهنأون

بها ، فيجب أن يخضع العقل وما ينتج من علم وأدب وفن لسلطان الفاشسم وإلا أصابه الإذلال وتعرض لضروب من الشدة وصنوف من الحرمان !

يجب أن يقسم الأساتذة والمعلمون يمين الولاء للنظام الجديد فى حياتهم السياسية وحدها بل فى التعليم أيضا ، يجب أن ينزل العقل عن شخصيته وأن يكون مرنا رخوا ، وأن يتشكل بالأشكال التى تريده السياسة أن يتشكل بها ، فأما كثرة هؤلاء الأساتذة والمعلمين فقد أقسمت ، وأما قلّتها فقد آثرت ما جاءها به النذير ففصلت من الجامعات والمدارس وتفرقت فى أقطار الأرض ، تفر بكرامة العقل من الفتنة والإذلال .

ولقد قرأت منذ عام ، ثم منذ أشهر كتبا لرجل من أكبر العلماء الإيطاليين ، رفع اسم وطنه فى البيئات العلمية منذ أعوام طوال ، فإذا هو قد رفض هذه اليمين التى طلبت إليه ، وإذا حياته بين المشقة والعناء بحيث لا تشرف بها الحضارة العصرية .

ولا بد لمصر من أن يمتحن فيها العقل كما يمتحن فى هذه البلاد الأوربية الراقية ، ولا بد للسياسة من أن تذل العقل لا فى مصر ، كما أذلت العقل فى ألمانيا ، وكما أذلته فى روسيا ، وكما أذلته فى إيطاليا ، لأن مصدر طغيان السياسة واحد فى هذه البلاد كلها مهما تختلف عصوره وأشكاله ، هو سخط على الديمقراطية وإنكار لها ، وتبرم بها ، ومحاولة لتطهير الشعوب منها ، قوم يريدون أن يبسطوا سلطان العمال على غيرهم من الطبقات فيحققون طغيان العمال ، وقوم يريدون أن يحاربوا الشيوعية ويمكّنوا الطبقات الوسطى من القضاء عليها فيحققون طغيان هذه الطبقات ، وقوم لا يجدون أمامهم عمالا يطمعون فى التسلط ، ولا يجدون أمامهم طبقات وسطى تحتاج إلى أن تقاوم وتدافع عن نفسها، ولكنهم يجدون أنفسهم وأطماعهم وأهواءهم وشهواتهم وإيمانهم لأنفسهم بالعصمة فيريدون أن يخضعوا لأنفسهم أمة كاملة ، وشعبا بأسره . وأولئك وهؤلاء يخشون العقل فيحاربونه ! ويحتاجون إلى العقل فيتملقونه ! وأولئك وهؤلاء يتخذون وسائل القوة المادية العنيفة بإذلال العقل وإخضاعه لما يريدون !.

ما كان أحرصنا على أن ندع ألمانيا وإيطاليا وروسيا فى ثورتها وانقلاباتها لولا

أن هذه البلاد تضرب الناس أمثالا خطيرة ، وتغرى الناس بما أغريت به هى بمحاربة العقل وإخضاعه لألوان الطغيان .

ليس لأحد أن يتحكم فى سياسة أمة أجنبية ، أو يدخل فى أمورها ، ولكن من الذى يزعم أن العقل ملك لأمة دون أمة ؟ أو وقف على شعب دون شعب ؟ من الذى يزعم أن الكتاب الألمانى إذا أخرجه مؤلفه للناس وأذاعته فيهم المطبعة مِلك لألمانيا دون غيرها من البلاد ؟ كلا ليس العقل الألمانى ملكا للألمانيين وحدهم ، إنما هما ملك للناس جميعا ، والاعتداء عليهما اعتداء على الناس جميعا ، والتعرض لهما بالإذلال والتمزيق طغيان على الناس جميعا ، فمن حق الناس جميعا أن يضيقوا بذلك وينكروه ، فكيف إذا كان هذا الطغيان مغريا بالتقليد ، داعيا إلى الاقتداء والتأسى .

ما أظن أن هذه الحركة العنيفة التى تحدث فى ألمانيا الآن ، والتى تفتن العقل وتضطهده وتتجاوز فى فتنته واضطهاده كل حد ، قد حرمت ألمانيا مودَّة الأمم لأوربية الراقية وحدها ، بل هى خليقة أن تحرم ألمانيا حب الأمم الشرقية التى تطمح إلى الحرية ، وإلى حرية العقل خاصة ، والتى تجاهد فى سبيل هذه الحرية ، وتلقى فى جهادها هذا عناء شديدا .

يجب أن يكون لمصر حظها من فتنة العقل واضطهاده ، فمصر جزء من أوربا ، ويجب أن تأخذ بحظ من كل ما يقع فى أوربا !

ظهرت الثورة الديمقراطية فى أوربا فثار بها بعضنا فى مصر ! ظهرت بدعة الدكتاتورية فى أوربا فشغف بها بعضنا فى مصر ! ظهر إذلال العقل فى أوربا فجدَّت فيه حكومتنا فى مصر ! وهل يقع فى الجامعة المصرية الآن إلا هذا ؟ إنما حياة الحكومة والجامعة حرب متصلة بين السياسة والعقل ، قد انتصرت فيه السياسة على العقل انتصارا مؤزرا ، لا يعزى الناس عنه إلا أنه موقوت ، يزول بزوال مصدره ، وهو الوزارة القائمة .

لقد غيَّرت نظم الجامعة وقوانينها ، وأشرنا نحن إلى خطر هذا التغيير وما فيه من مكر بالعقل ، وإذلال له ، وتحكيم للسياسة فيه . وقد أخذت الجامعة

تخضع للنظام الجديد ، وتظهر فيها آثاره السيئة ، فيا له من شر ، ويا له من نكر ، ويا له من ذل لا تبيض له الوجوه !.

هذا مجلس الجامعة الجديد ، يجتمع فى شكله الأرستقراطى منذ أيام فتقصى عنه كثرة الجامعيين ، ويقال لها انتظرى حتى يبلغك الدعاء ، فتنتظر صاغرة ، ويقضى هذا المجلس الأرستقراطى فى شئون الجامعة وأهلها غائبون ، ويا شر ما يقضى ، حتى إذا فرغ من أمره دعا الكثرة الجامعية فجاءت طائعة ، واشتركت فيما لا غناء فيه .

عرض على مجلس الجامعة الأرستقراطى هذا أن يرقى جماعة من الأساتذة المساعدين إلى كراسى الأساتذة فأبى لأن هؤلاء الأساتذة لم يظفروا بدرجة الدكتوراة ، ولكنه رأى لبعضهم عليه حقا فاستثناه ، لا بالترقية العلمية ولكن بالمال . رقاه درجة الأستاذية ومنحه علاوتين بالاستثناء كأن الجهود العلمية إنما تقوم بالدرجات والعلاوات فى معهد يجب أن تقوم فيه بالألقاب العلمية قبل كل شىء .

هلمَّ أيها الجامعيون ، تنافسوا فى الدرجات وازدحموا على العلاوات ، وضعوا جهودكم العلمية للبيع والشراء ، فهذا أقصى ما تستطيعون أن تطمعوا فيه الآن !

ومحنة أخرى للعقل فى الجامعة ، هذه التى تريد أن تقصى عن مجالس الكليات كما أقصت عن مجلس الجامعة طائفة من الأساتذة المساعدين ، هم الذين قامت عليهم الجامعة ، سيصبحون منذ اليوم وليس لهم إلا إلقاء الدروس ، وسيقضى فيهم الأجانب وكبار الموظفين وهم صاغرون !

ما هكذا يحترم العقل المصرى ، ولا هكذا تنشأ الكفاية المصرية ، ولا هكذا تهيأ مصر لاحتمال التبعات ، ولقاء الخطوب ، ولكن لماذا نطمع فيما لا يطمع فيه كثير من الأوربيين . هؤلاء علماء ألمانيا يستذلون ، وهؤلاء علماء إيطاليا يستذلون ، فلم لا يستذل علماء مصر ؟ هناك فرق لم تفطن له الحكومة ، أو فطنت له وتعمدت الإعراض عنه ، وهو أن علماء الألمان والإيطاليين يستذلهم الألمان والإيطاليون ، فأما علماء مصر فيستذلهم الأجنبى برضى حكومتهم المصرية ..!

صنع الله لهذا البلد الشقى ، فقد أبى حظه السيىء إلا أن يجعله خاضعا دائما لوصاية المعصومين من الأوصياء !

أما أنا فأقدمإلى الوزارة القائمة أصدق التهنئة لما وفقت إليه من إذلال المصريين ، فما ينبغى لها وقد أذلت أساتذة الجامعة إلى هذا الحد أن تطمع فى مزيد من السلطان ! وأقدم أصدق التهنئة إلى الجامعيين ، فما ينبغى لهم وقد انتهوا إلى هذا الحد من الذل أن يخافوا بعد اليوم ضيما ، وأى ضيم شر مما هم فيه ؟!